محمد علي شمس الدين

البحث عن خالد

١ ـ

كانت الطائرة تضع اخر لمساتها فوق المخيم . لقد سرحته نسريها اخيرا يليق بموت فلسطيني جميل .

هكذا بدا لي المشهد أولا ...
كنت بعيدا ، ومحايدا ...
لكن الغرس ما لبث أن اصبح دمويا ، وجذبني اليه .

وقد تم ذلك ، حسب ما أتصور ، حين هرولت الطائرة نحوي ، من الافق الشرقي ، وكان فيه قليل من السحاب الدموي الشفاف ، وطيور صغيرة دموية ايضا ، وبكاء لطفل صغير شبيه بمسيح عصري مذبوح ...

فاحسست أن عروقي تفصدت ، ونزفت كثيرا كثيرا ، حتى امتد منها حبل مجدول ، والتف حول عنقي ، وجذبني الى جناح الطائرة ، وعلقني ، واخذ يطوف بي ، اولا : فوق حقل من التبغ كبحيرة خضراء صغيرة ، بدأت مياهها تحمر قليلا قليلا ... ثم تسود قليلا قليلا .. ثم تشتعل ... كان التبغ يشتعل . ثانيا : بين هضبتين كبيرتين، كثديين كبيرين ، وكان ثمة نهر صغير يلمع كالسكين ، ويذبح على ضفتيه الاعشاب ، لانه ما كان يوسعي أن أرى الاعشاب الصغيرة ، وانا معلق في جناح الطائرة . ثالثا : فوق قرية مرسومة (كانت في الواقع قرية جنوبية صغيرة ، موجودة في الطبيعة ... أظنها موجودة .. ومرسومة ... وفي الطبيعة .. هكذا ... الخ) . المهم أن القرية محصورة ومحاصرة ، واحسست ان لها رئة تتنفس بصعوبة ، ورجالها يلعبون لعبة (القراع) .. وهي لعبة تتلخص بأن يصرخ اللاعب صرخة قوية ، ياخذ الصرخة بين يديه ، يكورها ، ويقذفها الى رفيقه ، وينام ، فيتلقفها هذا ، ويقذفها الى رفيقه ، وينام ، فيتلقفها هذا .. و .. يقذفها .. وينام ...

الطائرة تطوح بي فوق المخيم ، انها تحوم حوله ، كما يحوم الباشق حول الطريدة . المشهد شاعري ومؤثر حتى الموت . بيوت التنك والطين تكسوها ظلمة عميقة وقاتلة ، شبيهة باعماق المحيط . ثمة اضواء صغيرة تلمع مثل عيون صغيرة للشوادر . وكانت تتسرب لاذني حداوية لام تهدهد طفلها : « نامت عيونك وعين الله ما نامت » ...

٢ ـ

الساعة الان هي الصفر . الهدوء تام والمخيم قابل للموت . تدور الطائرة دورتين ، تجنح ، وتنقض بسرعة رهيبة ، فتفتح وردة لهيبية بحجم السماء . وتندفع من المخيم نوافير من الصراخ والدماء والغبار. ثم لا يلبث الهدوء أن يعود ، قليلا ، قليلا ، ويهدأ الصراخ ، وتنطفىء الاضواء ، الصغيرة ، التي كانت تلمع مثل عيون صغيرة للشوادر .

٣ ـ

انا الان واقف على الطرف الشرقي ، على طرف ما .. قد يكون الشرقي او الجنوبي للمخيم ، فقد انفصلت مثلما ينفصل الجنين من حبل السرة .

انفصلت ووقفت على طرف الخرائب . بعض الحرائق والانفجارات يحدث في الروح ، والارض مملوحه فعلا . ومغروسة بالاشلاء البشرية، وكانت سواق صغيرة من الدماء تسقي آلام التراب ، وتغور بعيدا بين الحبات حتى مركز الارض .

. . . . . .

فجأة ، تمزق الصمت صرخة ، يتبعها جلبة وضوضاء .

تلفت الى مصدر الصوت . لم تكن المرأة تبكي . كانت مذعورة . لكنها لم تكن تبكي .

تأملت وجهها جيدا على ضوء الفجر الذي بدأ يطلع من السماء ، فوجدت في عينيها بريقا ساطعا وشرسا يزيد في اضاءة الساحة .

... اندفعت المرأة فجأة نحو ساق مبتورة ما زال ينزف منها الدم. اخذتها بيدها وصاحت : « هذه ساق خالد ... » .

جذبها من كتفها رجلان كانا يهدئان من روعها : تعالي ، فخالد ما زال نائما في السرير .. انه في السرير .

دفعتهما المرأة بعيدا ، بحركة عصبية واكملت بحثها الملهوف ، وكأنها لم تشعر بوجودهما ، أو تستمع لما قالاه ... ثم انعطفت قليلا، واندفعت الى الامام بحركة عنيفة ، وانحنت الى التراب : ـ « ...وهذه كفه الصغيرة .. انني اعرفها .. هذه كفه .. » .

تبعها الرجلان ، حاولا الامساك بها مرة ثانية ، لكنها تخلصت منهما بعنف ، وتابعت طوافها متعثرة بين الاثلام ... وقفت قليلا ، اجالت بصرها بعيدا ، بعد التفاتة يسيرة الى الخلف ، ثم اندفعت ، وقد ارتسمت على فمها ابتسامة قاحلة ومرة .

« ... هذه بقايا صدره الصغير ، بقايا صدره .. وجدتها .. وجدتها ... انها هي ... هي .. آ ... »

عبثا حاول الرجلان اقناعها بوجود الطفل في سريره . بانه نائم ، وان القنابل اخطأته .

تكمل المرأة دورانها المذعور ، ثم تتسع البسمة القاحلة على شفتيها فجأة ، وترمي بكل جسدها على كتلة غامضة من اللحم الممزوج بالدم والعظام ، وهي تقول :

« .. لقد وجدته .. وجدته .. اخيرا .. لا اشك .. وجدته ... هذا هو رأسه الجميل .. وجدته .. آه .. هيا ، لنعد الى البيت . هيا .. تعالوا ... » .

تضم المرأة الرأس والجسد والاطراف .

يضمها الرجلان ...

ويبتعدون .

لبنان الجنوبي